طريق الانسان الجديد

بين الحرية والاشتراكية

تأليف احمد حيدر ـ منشورات دار الاداب ـ بيروت

***

يوحي عنوان الكتاب ، للوهلة الاولى ، بأنه بحث سياسي اقتصادي. وليس هو كذلك في حقيقته . فهو يتناول قضايا فكرية عامة ، وبمستوى عال من التفكير والتأمل ، تمس في جوهرها قضية الانسان ، وموقفه من هذا العالم المحيط به ، ويحاول مؤلفه ان يهز ـ بطريقته الخاصة ـ أهم النظريات الفلسفية ، والمذاهب الفكرية التي أثرت او تطمح الى التأثير في مصير الانسان ، فيكشف ، في ثقة وبراعة ، عن المزالق الخطرة التي تأتيها تلك النظريات والمذاهب ، وتحاول ان تجر الانسان اليها .. ويبين الافاق التي استكشفها للفكر البشري ، في رحلته نحو الحقيقة ، والامام التي يفكر في ان يحط الرحال عندها ليريح ويستريح . ولا يتحرج في ان يعلن اخيرا ـ وفي جرأة ـ ان الانسانية مازالت في بداية الطريق نحو غدها المشرق الموحي بالثقة والاطمئنان ، رغم انه يبدو متشائما الى حد ما ، خصوصا في رأيه بالاشتراكية في الصفحات الاخيرة .

يوزع المؤلف كتابه في خمسة فصول :

الفصل الاول : في المطلق ـ الفصل الثاني : في الريبة ـ الفصل الثالث : في المنهج الجديد ـ الفصل الرابع : في موقف الذات من العالم ـ الفصل الخامس : في الذات والعالم .

وهو ، برغم هذا التوزيع والتبويب ، يريد لبحثه ان يكون مترابطا مشكلا كلا واحدا متسلسلا . بين الصلة بين فصوله ، بحيث تظهر الفصول نوعا من التجريد او التبويب العلمي ، ليس الا .

يعرف المطلق بقوله : « انه الحقيقة النهائية او السبب الاول الذي تنتج عنه جميع ظواهر هذا الوجود » ... « ويمتاز بخاصتين : الوحدة والثبات ، وكل انسان ... قد عاش على ضوء مطلق ارتضاه لنفسه » . فكأن المطلق ـ بحسب هذا التعريف او التفسير ـ هو التصور الكلي ، او المثل الاعلى ، أو خط السير الثابت للانسان المحدد لميوله واتجاهاته. او هو الحقيقة التي يطمئن اليها ، ويبني عليها احكامه .

اما المطلق عند الفرد فلا نرى المؤلف يحفل به طويلا ، لانه ـ على مايبدو ـ يريد ان يسيرفي خط المعرفة الواضح السهل ، دون ان يتورط بالمشاكل الفلسفية العميقة ، خصوصا الميتافيزيكية منها . بل نراه ينتقل الى المطلق الحضاري الذي يطبع كل امة بطابع خاص ينتظم خط سيرها جماعة فتنضوي تحت لوائه افرادا ، ويصبح مطلق الفرد عديم الجدوى مالم ينسجم مع المطلق الحضاري العام للامة . فهو يقول مثلا : « ان لكل حضارة تصورا عن الكون » و« تشرف حضارة ما على الانهيار عندما يساور الافراد شك في المطلق الذي ارتضته الحضارة لنفسها ، وعندما يتبينون انه ليس مطلقا ويمكن تصور نقيضه ... وعندما يصاب المطلق بالريب تصاب التصورات الجمعية التي تمسك الافراد وتشدهم جميعا الى هدف واحد ، وتكثر ظواهر اللاانتماء » . وهنا يثير المؤلف مشكلة انسانية رهيبة تعاني امتنا العربية من مأساتها فوق ماتستطيع ان تتحمله الامم . فنحن العرب على مفترق طريقين : طريق نقف في نهايته اركين وراءنا فيه الدموع والالم ، وطريق نقف في بدايته حاملين الرعب والهول والحيرة . والاجيال التعيسة التي قال عنها الكاتب : « انها نعيش المراحل المهيضة .. بلا مبرر ، وبلا هدف ، لان الاهداف القديمة قد تداعت ، والاهداف الجديدة لم تلح بعد » ، انما هي نحن ، نحن الجيل التعيس الذي قال الكاتب : « انه ينتسب الى عالمين : عالم الماضي الذي لم يزل مستمرا ، والذي فقدنا ايماننا به ، وعالم المستقبل الذي سيأتي دون ريب » . لاننا لانكاد نتبين الصورة التي نريد ان يكون عليها هذا المستقبل .

ويبسط المؤلف المشكلة على الذهن بحيث تغدو في مقدور فهم العامي . فللانسان حاجات عضوية فيزيولوجية متى اشبعها ، واطمأن استطاع ان يحقق ذاته على الوجه الاكمل وضمن المطلق الذي يرضاه لنفسه ، غير ان العالم من حوله معقد ، وله قوانينه التي كثيرا ماتتصادم مع ذات الانسان وارادته . ويريد الانسان ان يتخذ لنفسه موقفا من العالم يضمن فيه لنفسه حاجاتها ، ويكفل تحقيق ذاته بحرية وعمق . والعالم ـ ممثلا بقوانين الطبيعة حينا ، وبقوانين الحضارة احيانا ـ يقسر هذا الانسان ويكسر له خط سيره ليرده الى القطيع ، ويخضعه بدل ان يخضع له ، فيقوم الصراع بين الضرورة والحرية ، او يقوم صراع الانسان في سبيل حريته ليخضع الضرورة ، ويجعلها عاملا من عوامل خدمة الذات .

ولقد ظهرت فلسفات ونظريات كثيرة حاولت فرض مطلقها على الوجود ، الا انها جميعها اكتشفت ان الوجود أعند من ان يخضع للعقل الانساني .. فذهب المطلق ، الى غير رجعة ـ كما يقول المؤلف ـ لان الانسانية تبحث عن خط سير جديد يساعدها اكثر على التلاؤم مع هذا الوجود او تسخيره الى أبعد مدى ممكن . ذهب المطلق وترك وراءه وريثا اسمه النسبي الذي قال عنه المؤلف انه الد اعداء العقل ، ولكنه صديق الوجود ، فكأن العقل البشري آمن أخيرا ان النظام الكوني وحده المطلق وان مايكتشفه العقل الانساني من الكون انما هو أمور نسبية خاضعة لظروف الزمان والمكان وطبيعة الامة وحظها من المدنية والمعرفة . وهكذا يقول الكاتب « ان كل حضارة تبدأ وثوقية اعتقادية ثم تنتهي ريبوية شكية » .

وما بين الاعتقاد والشك مرحلة لاتقطع الا على أشلاء الضحايا .

اما الريبة فيهزها المؤلف كما هز المطلق قبلها ، ويتخذ منها موقفا محددا منذ البدء . واكثر قسوته تبدو على ريبية السوفسطائيين الذين جعلوا الانسان الفرد لا الانسان النوع مقياس الاشياء ، وقالوا بالعدم الوجودي ، وباستحالة المعرفة او استحالة نقلها الى الاخرين . واعتمد المنهج الديكارتي في الرد عليهم ، واستنتج في رده ان الوجود حقيقة ، وان المعرفة ممكنة وان نقلها الى الاخرين ممكن ايضا . وضرب لذلك مثلا

بالفسلفة الحديثة حيث قال : « هي فلسفة اوروبية ، ومع ذلك فان جميع شعوب الارض تحدد موقفها من هذه الفلسفة قولا ورفضا وتعديلا . وتحديد الموقف دليل الفهم والاستيعاب . »

وبعد تخطي عتبة الريبية ، ومنذ الكلمات الاولى في المنهج الجديد أي في بداية الفصل الثالث يبدو الكاتب منتميا ، لانه ينحاز الى جانب العلم التجريبي فيريد للفلسفة ان تسلك سبيل الاستقراء . والنظرية الثابتة للمؤلف والتي يلح عليها تبدأ وضوحها من هنا حيث يريد للفلسفة ان « تبدأ بالمنهج وان تترك باب البحث مفتوحا » أي ان تبدأ بالوقائع التجريبية دون ان تطمع بنتائج نهائية على يد فرد واحد او جيل واحد. ويؤكد بان الاستقراء منهج معترف به في المجال المادي من اشد العقول تعصبا « للقياس » ، الا انه لاينسى ان يقول : « ان الاخذ به في مجال الانسان لايزال مجال اخذ ورد » لان الاستقراء سبيل القانون ولا مجال فيه للحرية ، و « ان الانسان يتمنع على الاستقراء حفاظا على الحرية »

ان كل نقاط الضعف للفلسفات والنظريات والعقائد كامنة في ان اصحابها يلفون جوانب من الواقع ، او يخضعون تلك الجوانب لارائهم واستنتاجاتهم . فتتكرر المأساة في كل فلسفة ويكثر ضحاياها . وأما الاستقراء فلا يهمل قطاعا من قطاعات الواقع بل يفحص جميع متحولاته . ويصر الكاتب دوما على ان هذه مهمة الانسانية جميعا جيلا بعد جيل ، ولا يطمح الى بلوغ الحقيقة النهائية الا باضافة جهود الاجيال بعضها الى البعض الاخر ، في تجاربها وكشوفها عبر الزمن .

لقد كان المؤلف ، في فصوله الثلاثة : المطق والريبية والمنهج الجديد مستعرضا لنظرية المعرفة عاكسا لاراء المفكرين والفلاسفة معلقا عليها ، مصدرا بعض احكامه ، الا انه في الفصل الرابع « موقف الذات من العالم » وفي الفصل الخامس « الذات والعالم » يبدو متفلتا من الدراسات والنظريات الى حد بعيد ، ليسجل انطباعاته وحدوسه ومعاناته الشخصية وهنا يتخذ البحث طابعا ادبيا اخاذا ، بعد ان كان فيما سبق اقرب الى البحث الجدي الرصين .

يقول المؤلف (ص ٧١) : « ان الانسان هو الكائن الوحيد الذي يشعر بانه يريد، وأن هناك حدودا لهذه الارادة ، وأن ضغط هذه الحدود يثير ألمه ، والالم دليل الانفصال » . ويعني بالانفصال انفصال الذات عن العالم ، فهي واياه طرفان متعارضان لا سبيل الى التوفيق بينهما . الا ان ذوات الناس ليست في موقف واحد تجاه العالم ، ولا تواجه منه نفس الدرجة من الضغط ، لا .. بل ان منها ما لا يعاني من ضغط العالم شيئا . يصور المؤلف ذلك في قوله (ص ٧٢) : « ان ضغط العالم على الذوات ليس واحدا ، فهناك نفوس شعرت منذ طلعت على هذه الدنيا بأن العالم المحيط بها ليس سوى مدى حيوي تمارس عليه امكانياتها ، وكأن كل ما فيه ليس سوى أدوات لنموها وانتشارها . هؤلاء هم الذين أوتوا وفرة في الصحة ورخاء في الثروة الاقتصادية ، وانبساطا في المزاج .

وهناك نماذج أخرى على العكس من ذلك ، لا ترى في العالم سوى جدران تزحف نحوها باستمرار لتسحقها آخر الامر . هؤلاء الذين تحول ظروفهم الاقتصادية بينهم وبين الحاجات الضرورية ، ويحول مجتمعهم بينهم وبين النمو ، وتحول عضويتهم بينهم وبين الفاعلية .. فيأتي المزاج المضطرب بعد ذلك ، وهو في أغلب الاحيان نتيجة لذلك التاريخ التعيس»

و « هؤلاء يفرون من ضرورة هذا العالم وقسوته » :

ـ بالفن ليخلقوا عوالم اكثر ملاءمة « لبني البشر » فالفنان هو من استطاع أن يتحرر من ربقة الارادة ، وبذلك يرى العالم في صفائه لانه لم يعد مشتركا فيه » .

ـ وبالبطولة كوسيلة من وسائل تحدي الذات للقدر ، « فالبطولة هي سلوك سبيل الخطر أو سلوك أطول السبل ، لان في ركوب الخطر أعلى شعور بالذات » .

ـ وبالتصوف ليتم الخلاص من الرغبات بقتلها ، لان اشباع الرغبات يتطلب اشباعا مستمرا « فما تكاد الرغبة تتحقق حتى يبدأ جوعها بعد حين فتطلب تحقيقها من جديد ، وهكذا » .

ـ وبالعبث ترتاح الذات من حمل مسؤولياتها . فالعابث هو من استسلم للان الحاضر ، وتخلى عن قيادة ذاته حسب مخطط مبين ، وترك نفسه للظروف الخارجية ... والعمل تضحية بالحاضر من أجل المستقبل اما العبث فهو تنازل عن هذا المستقبل » .

ـ وبالانتحار الذي « يكثر ويقل حسب الازمات الحضارية » .

« فوسائل الفن والبطولة والتصوف الخ .. هي أساليب للخلاص من العالم عند انعدام القدرة على تغييره ، فهي لا تفعل في العالم اكثر مما تفعل في أصحابها الذين يغيرون العالم عن طريق تغيير زاوية النظر اليه » .

لقد وقف الكاتب عند الفن والبطولة والتصوف فأبرز منها سمات انسانية رائعة، وكشف منها جوانب جديرة بالاعجاب والخلود، واستعرض فيها بعض ما للفلاسفة والمفكرين من آراء ، وكانت معاناته الشخصية ، وكشوفه التأملية رائدا كبيرا له في عرضه لتلك الجوانب . وهو يقر في ذلك كله على أن يبين ان الذات الانسانية تريد ان تمارس حريتها على نحو ما وترفض الحتمية المطلقة بأن تتخذ لها مواقف معينة ازاء الضرورة، وترسم من مواقفها عوالمها الخاصة . غير أنه يحرص على أن يبين أن تلك مواقف فردية قد لا يتهيأ لها أن تؤثر في المخطط العام للحضارة ، أو أنها تحدد موقفها من المطلق الحضاري برفضه والهرب منه لا بمحاولة توجيهه والعمل فيه .. برغم ما للفن والبطولة والتصوف من مآثر جديرة بالاعجاب . والموقف الحاسم الذي تقفه الامة من مطلقها الذي هزته الايام وهلهله التطور هو الثورة والانقلاب عليه . ولقد « انتشرت الثورات كخيط أحمر خلال التاريخ ، وحاول المفكرون تفسيرها ومذهبتها تبعا لمذاهبهم الخاصة ، ففسروها بعوامل اقتصادية وطبقية وعنصرية الخ .. وكل تفسير كان أضيق من أن يشمل جميع الظواهر » . من هنا يتبين أفق الكاتب الواسع وانسجامه مع مخططه العام الذي اعتمد فيه على

مجموعة تراث العرب

تصدر باشراف لجنة من المحققين

صدر منها		ق.ل
١ ـ لسان العرب	٦٥ جزءا	٢٦٠٠٠
٢ ـ معجم البلدان	٢٠ »	٨٠٠٠
٣ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد	٣٢ »	٨٠٠٠
٤ ـ رسائل اخوان الصفاء	١٢ »	٣٦٠٠
٥ ـ البخلاء للجاحظ		٦٠٠
٦ ـ مقامات الحريري		٧٥٠
٧ ـ مصارع العشاق لابن السراج جزآن		١٢٠٠
٨ ـ الائمة الاثنا عشر لابن طولون الدمشقي		٢٥٠
٩ ـ مجمع البحرين لليازجي		٦٠٠
١٠ ـ مشارق أنوار القلوب لابن الدباغ		٥٠٠
١١ ـ تاريخ ولاة مصر للكندي		٧٥٠
١٢ ـ رحلة ابن جبير		٦٠٠
١٣ ـ رحلة ابن بطوطة		١٥٠٠
١٤ ـ تاريخ اليعقوبي جزآن		٢٠٠٠
١٥ ـ تاريخ الدول الاسلامية		٧٥٠
١٦ ـ الادب الصغير والادب الكبير لابن المقفع		٣٠٠
١٧ ـ المحاسن والمساوىء للبيهقي		١٢٠٠
١٨ ـ آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني		١٥٠٠

الناشر ـ دار صادر ـ دار بيروت

الاستمرار والاختيار لكل جوانب الواقع . والمنطق في ذلك كله « الذات الانسانية التي تميل الى ان تعامل كذات » . وأكد أن جيلا واحدا لا يمكنه ان يصل الى الهدف النهائي . وأن الثوار لا يطمحون « الى ان يعيشوا في مجتمع ما بعد الثورة السعيد ، لانهم يعرفون سلفا أن أعمار الشعوب أطول بكثير من أعمار الافراد ، وأن كل تغيير في عمر أمة ما لا بد له من وقود يتألف من أجيال عديدة » .

والموقف الاخير الحاسم في الكتاب هو أن الكاتب يصر على أن تزال العوائق المادية من حول الانسان ليتمكن من تحقيق انسانيته على الوجه الاكمل . فهو يرى في الرأسمالية عدوا كبيرا للانسان لانها اخضاع قطيع كبير من البشر الى مطاق لا يرتضونه ، وأنها تعامل أبناءها معاملة الآلة بعد ان تحذف لهم شعورهم وحريتهم . أما الاشتراكية فهي قدر الانسان للذي يجب أن تسعى اليه ... لقد عمل الانسان في الطبيعة واوشك ان يخضعها لارادته ومع ذلك فان الحاجات البشرية لا تزال معطلة لدى طبقات ومجتمعات بأكملها ، وأن هذه الحاجات المعطلة لن ترتوي عندما يكمل بناء الصناعة .. بل ان العكس سيحدث ، فان نمو الصناعة الحر سيدفع بقطعان جديدة من البشر نحو الجوع والضياع ، ولذلك لا بد ان يقوم البشر بتدخل جديد . والتدخل هذه المرة سيكون في المجتمع ، فقد تدخلنا في الطبيعة وضمنا عملية الاستثمار ، وبقي ان نتدخل في المجتمع لنضمن عملية التوزيع . والنظام الرأسمالي يجعل الحالة الاقتصادية للافراد متوقفة على الصدفة وعلى الظروف السعيدة والتعيسة .. ويجعل الغد شيئا مجهولا ... فيجب أن نخلص الحياة الاقتصادية من النزعة الفردية .

ويتحدد الى هنا انتماء المؤلف بشكل جلي واضح . فهو اشتراكي لا يجادل في ضرورة الاشتراكية للانسان ، وهو يبني ايمانه بالاشتراكية على بديهية بسيطة عندما يقول : « تستمر الحياة البيولوجية ما دامت تجد ارواء منتظما ، وهذا يستلزم أن يسود الحياة الاقتصادية لدى الافراد الاستمرار لا الانقطاع . واذن فمن أجل أن نضمن استمرار الحياة الاقتصادية لكل فرد يجب أن نتدخل في مجرى التوزيع الاقتصادي وذلك من أجل استمرار الحياة الانسانية » .

لكنه لا يبدي رأيا دقيقا في الاشتراكية بل يكتفي بالعرض السريع والاحكام المجتزأة كأن يرى – مثلا – أن الماركسية هي الصورة الحقيقية للاشتراكية اقتصاديا و « الفارق الجذري بين الاشتراكية الديموقراطية والاشتراكية الماركسية لا يكمن في الناحية الاقتصادية وانما في الحرية». ولا يجد القارىء هنا بدا من ان يطالب المؤلف بمزيد من الايضاح ومزيد من المقارنة لان الحكم هنا سريع وغير واف بالغرض ، ولان في ذهن الكثيرين – ولعله أقرب الى الصحة – أن الفوارق بين الماركسية والنظريات الاشتراكية الاخرى فارق في الاقتصاد والحرية معا ، وأنهما لا يلتقيان الا في بعض الجوانب الفرعية .

ويحاول المؤلف أخيرا أن يعود الى ما بدأه فيقول ان الاشتراكية وان حلت مشكلة الانسان الاقتصادية ، فهي ليست البلسم السحري لانها « ليست سوى حل للمشكلة الاقتصادية التي ليست سوى مشكلة واحدة من مشاكل الانسان ، وهي لا تستطيع ان تحرر الانسان من بقية الاوضاع الاخرى المفروضة عليه مثل الزمن والموت والالم ، فيقف بنا من جديد على عتبة الميتافيزيك دون أن يدعونا الى ولوجه » ، بل – برغم ذلك كله – يصرح بأنها – أي الاشتراكية – هي المعنى الانساني الذي يريد أن يلقيه على الطبيعة .

حبذا لو عاد المؤلف الى كتابه فزاد بعض جوانبه ايضاحا وأغنى بحثه في الاشتراكية بمقارنات وتفسيرات جديدة ، فانه يبدو من الكتاب القلائل الذين أولوا قصة المعرفة ومصير الانسان – في بلادنا – العناية الصحيحة وأخلصوا لها وجعلوها قضيتهم بالذات . وله منا تحية اعجاب وتقدير .

جميل حسن

صدر حديثا

الرواية التي اعلنت احصائيتان رسميتان في بلجيكا وفرنسا انها في طليعة الروايات العالمية التي تقبل عليها الاجيال الجديدة :

ابك يا بلدي الحبيب !

بقلم : الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

تصوير رائع صادق للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

■ ان طابع السمو في هذه القصة يرجع الى نقاوتها ،وبساطة الحوار المطلقة فيها ، مما يمنحني الجرأة على ان ادعوه كتابا نموذجيا لا يراعي فيه كاتبه شيئا على الاطلاق
غابرييل مارسيل

■ ان في هذه الرواية نضارة احساس، ورفضا للبلاغة السهلة ، وعظمة مأساوية ، تعقد بين المؤلف والقارىء تلك الاواصر الودية التي تشهد عليها الآثار المدعوة للخلود
جيلبير غيومينو

■ ان افريقيا الجنوبية تشهد مشكلة عنصرية عنيفة لا نعرف عنها الا القليل . وان هذه الرواية تحمل لنا عن هذه المشكلة شهادة مثيرة .
وانا لم اقترب قط من هذه المشكلة الا واعتراني شعور باني اطل على هاوية .
ولا بد ان يداخل هذا الشعور بصورة مؤلمة كل قارىء لهذه الرواية التي تتميز ببساطة وعظمة كبيرتين
اندريه سيغفريد